﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٣٢﴾ [محمّد ﷺ: 32]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

ذِكْـرُ الكافرين بـعـد ذِكْـــر المنافقين

بعد أن ذَكرَ النّظمُ الجليل فيما سبق شأنَ المنافقين الذين يُسِرّون الكفرَ ويُظهرون الإسلامَ وفَرَغَ منهم؛ عاد في هذه الآية إلى الحديث عن الكفّار الذين يُعلنون كفرَهم ويُجاهِرون به.

ومنها: أنّه لمّا أخبر تعالى عن الكافرين فيما سبق بأنّه أضلَّ أعمالَهم، وأمرَ بضَرْبِ رقابِهم، وأنّ التّعْسَ لهم، وأنّ اللّه أهلك قرًى هي أشدّ منهم قوّة؛ بيّن في هذه الآية أنّهم لن يضرّوا اللّه تعالى شيئًا، وأنّهم لن يستطيعوا ضَرَّ رسولِ اللّه مع مُشاقَّتهم له ﷺ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَصَدُّواْ﴾: (صدّ) أصلٌ يدلّ على إعْراضٍ وعُدولٍ، وصددتُ فُلانًا عن الأمر، إذا عَدَلْتَهُ عنه. والصَّدّانِ: جانبا الوادي، الواحد صَدٌّ[2]. وصَدَّ عنه يَصِدُّ صُدودًا: أعرض. وصَدّه عن الأمر صَدًّا، مَنَعَهُ وصَرَفَه عنه[3]. وصَدَدتُه عن كذا أصُدُّه صَدًّا، أي: عَدَلْتُه عنه وصَدَدْتُ عنه بنفسي صُدودًا[4]. والصّدُّ: المنع، مأخوذ من صَدّ الجبل، وهو ما يحول بينك وبينه. ومنه الصَّديدُ: وهو ما حالَ بين

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 125.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صد).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (صدد).
(4) الخليل، العين: (صدد).

اللّحم والجِلد منَ القيح، وعليه قوله تعالى: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾ [إبراهيم: 16][1]. والمراد به في الآية الكريمة: المنع عن الإسلام[2].

2) ﴿وَشَآقُّواْ﴾: (شقّ، شقق) أصلٌ يدلّ على انْصداعٍ في الشَّيْءِ[3]، والشُّقَّةُ: النّاحية التي تَلْحَقُكَ المشقّةُ في الوصول إليها، قال تعالى: ﴿بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾ [التّوبة: 42]، والشِّقاقُ: المخالفة، وكونك في شِقٍّ غير شِقّ صاحبِك، قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ [النّساء: 35][4]، والشِّقاقُ: الخِلافُ[5]، والمُشاقَّةُ والشِّقاقُ: غَلَبَةُ العداوةِ والخِلافِ، سُمّيَ ذلك شِقاقًا لأنّ كُلَّ فَريقٍ قصد شِقًّا غيرَ شِقِّ صاحبه[6]. والمُراد به في الآية الكريمة: العَداوَةُ والخِلافُ[7].

3) ﴿وَسَيُحْبِطُ﴾: (حبط) أصلٌ يدلّ على بُطْلانٍ[8]، وأصله من قولهم: حَبِطَتِ الدّابَّةُ، إذا أكلَت أكلًا انتفخ بطنُها منه فماتت[9]، وحَبِطَ عملُهُ حَبْطًا بالتّسكين، وحُبوطًا: بطَلَ ثوابُه. والإحباط: أن يذهب ماءُ الرَّكيَّةِ فلا يعودَ كما كان[10]. وحَبِطَ عَمَلُه: فَسَدَ، وأحبَطَه صاحبُه، واللّه مُحْبِطٌ عملَ من أشْرَكَ[11]. والمُراد به في الآية الكريمة: إبطالُ العملِ[12].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مكايدُ الكافرين لا تَضُرّ الله شيئًا

يُؤكّد اللّه تعالى على أنّ الكافرين الذين أنكروا وحدانيّتَه،

(1) السمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (صدد).
(2) القنوجيّ، فتح البيان: 13/ 76.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شق).
(4) الرّاغب، المفردات: (شق).
(5) الخليل، العين: (شقق).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (شقق).
(7) القنوجيّ، فتح البيان: 13/ 76.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حبط).
(9) السمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (حبط).
(10) الجوهريّ، الصّحاح: (حبط).
(11) الخليل، العين: (حبط).
(12) السّمعاني، تفسير السّمعاني: 5/ 184.

وجَحَدوا بآلائِه ونِعَمِه، ولم يَكْتَفوا بكُفْرِهم، بل ذهبوا يَصُدّون النّاسَ عن دينه، ويمنعونهم من اتّباعه، وأظهروا الخصومةَ للنّبيّ ﷺ، فخالفوه وقاتلوه، بعد أنِ استبان لهم صدقُه، وظهرت لهم الآياتُ على - مبيّنًا أنّ أولئك الكافرين المُعرضين لن يضرّوا الله شيئًا، وأنّه تعالى سيُبطِلُ مكايدَهم التي نَصَبوها لإبطال دينه ومُشاقَّةِ رسوله، ولا يَصِلون بها إلى ما يبغون، ويُبْطِلُ ثوابَ أعمالِهم الحسنةِ التي عملوها في الدّنيا؛ لأنّهم لم يريدوا بها وجهَ الله تعالى[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرّ فصلِ هذه الجملة عمّا قبلَها:

فصل النّظمُ الجليل جملة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عمّا قبلَها؛ لأنّها مستأنَفَةٌ استئنافًا ابتدائيًّا؛ سيقَت للتّهيئة لما بعدَه من الأوامر في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾[2].

الحُكم على الكافرين بخيبة سعيهم تمهيدٌ لنَهي المؤمنين عن الوَهن

دلالة تأكيد الجملة بـ ﴿إِنَّ﴾:

أكّد النّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بحرف التّأكيد ﴿إِنَّ﴾؛ وذلك للرّدّ على ظنّهم على جهة اليقين بأنّهم هم الغالبون[3]، وأنّ سعيهم بصدّ النّاس عن سبيل الله سيُؤْتي ثمارَه، فدلّ التّأكيدُ على إنكار ظنّهم، وتخييب أملِهم. وفيه إشارةٌ للاهتمام بالخبر، ولفتِ الانتباه إلى التّفريق بين مَنِ اقتصروا على الكفر فقط، وبين من ضَمّوا إليه الصَّدَّ عن سبيل الله، ومشاقَّةَ الرّسول.

ظنُّ الكافرين الغلبةَ مدفوعٌ بتأكيد خُسرانِهم

دلالة التّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

عبّر النّظمُ الجليل بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله جلّ شأنه:

الكفر معهودٌ من المشركين ومن الضّالّين من أهل الكتاب

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 27/ 196، وجماعة من العلماء، التّفسير الميسر: 1/ 510.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 125.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 258.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنّهم قوم معهودون معروفون تعيينًا، والمُراد بهم اليهود من بني قريظةَ والنَّضير[1]، فقد عُهِد منهم الكفرُ حتّى صاروا معروفين بالصّلة في حيّز الموصول. أو المُراد الكفّارُ المذكورون في صدر السّورة: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝١﴾ [محمد ﷺ: 1]، وفيما بعدَه من الآيات، فعاد الكلامُ إليهم بعد الفراغ من ذِكْر المنافقين[2].

دلالة التّعبير بالكفر مادّةً وصيغةً:

عبّر النّظمُ الكريم بالكفر في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ للدّلالة على أنّهم جحدوا الآيات وغطّوا الدّلائل الظّاهرة في تأييد النّبيّ ﷺ[3]، وأوثِر التّعبيرُ بصيغة الماضي للدّلالة على رسوخهم بالكفر وتحقّقه بهم.

حَجْبُ الأدلّةِ الظّاهرة عادةٌ راسخة في الكافرين والضّالّين

سرّ التّعبير بـ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ دون (الكافرين):

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بـ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ دون (الكافرين)؛ للإشارة إلى ذَمّهم وتقريعهم على ما فعلوا من الكفر الذي رسخ في قلوبهم وتمكّن منهم، فما عادوا أهلًا لقَبول الإيمان.

ذمّهم وتقريعهم والتّأكيدِ على رسوخ الكُفر في قلوبهم وتمكّنه منهم

دلالة حَذْفِ متعلّق ﴿كَفَرُواْ﴾:

لم يذكر القرآنُ الكريم متعلِّقَ الفعلِ ﴿كَفَرُواْ﴾؛ لإفادة العموم، فكفرُهم لم يقتصر على الكفر باللّه تعالى وبرسوله؛ بل كَفَروا كلَّ نعمةٍ أنعم اللّه بها عليهم؛ فجمعوا بين كُفْرِ العقيدة وكُفْرِ النّعمة.

عمومُ كفرهم بكلّ ما أُمِروا بالإيمان به

دلالة العطف في قوله: ﴿وَصَدُّواْ﴾:

عطف النّظمُ الجليل الصّدّ على الكفر في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ للدّلالة على أنّهم لم يكتفوا

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 124.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 126.
(3) الخطيب، السّراج المنير: 4/ 34.

بالكفر والجُحود، بل عملوا على منع غيرهم منِ اتّباع الحقّ، فالتّصريحُ بصَدّهم عبارةٌ عن بيان زيادة كفرهم، وإصرارِهم على الباطل[1]. وفي هذا إشارةٌ إلى التّفريق بين الكافر الذي لا يتجاوز كفرُه إلى غيره، والكافرِ الذي يمنع غيرَه منَ الدّخول في الإسلام، بأن يَصُدَّه عن الإيمان بالرّسول والقرآن.

منعُ النّاسِ منِ اتّباع الحقّ إصرارٌ منَ الكفّار على كُفْرهم

دلالة التّعبير بالصّدّ:

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالصّدّ دونَ غيره في قوله تعالى: ﴿وَصَدُّواْ﴾؛ لأنّ الصَّدّ في اللّغة يدلّ على الإعراض والعُدول والمَنع؛ تقول: صددتُ فلانًا عن الأمر، أي: منعتُه وصرفتُه عنه، وهذا ما كان يفعله الكافرون من صَدّ النّاسِ عن الإيمان بالله وبرسوله، وذلك بأن يجعلوا حائلاً بين النّاس وبين رسول الله والمؤمنين، سواءٌ كان ذلك الحائل ماديًّا أو معنويًّا، وذلك ليدخلَ ما كان يفعله كفّارُ مكّةَ من صَدّ النّاس عن الإيمان بالقوّة، وما كان يفعله المنافقون بالحيَل والتّشكيك في أمر النّبوّة والكتاب.

الصّدّ عن سبيل الله منعُ النّاس عن الإيمان بالقوّة، أو منعهم بالحيلَةِ والتّشكيك

دلالة التّعبير بالماضي (صدّوا):

جاء التّعبير بالماضي في قوله: (صدّوا) للدّلالة على رسوخ الكفر ومحاربة الإسلام في قلوبهم، وأنّهم بذلوا لهذا الصّدّ كلّ الأسباب، حتّى صار طريقًا لهم في العدوان على رسول الله وعلى المسلمين، ولإبراز الموافقة في التّركيب الأسلوبيّ بين ﴿كَفَرُواْ وَصَدُّواْ﴾.

رسوخ الكفر ومحاربةِ الإسلام في قلوب المنافقين

سرّ تقييد الصّدّ بشِبه الجملة:

قيّد النّظمُ الجليل الصّدّ بشِبه الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ للدّلالة على شناعة صنيعهم، فلم يصدّوا النّاسَ عن منهاج يمكن أن يُترَك أو يتّصفَ بالنُّقصان وعدمِ

الصّدّ عن سبيل الله أشدّ من مطلق الكفر به

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 258، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 26/ 74.

الصّلاح، بل منعوهم منِ اتّباع نهجِ ربِّهم الذي ارتضاه لهم، وهذا أشنعُ من مطلق الكُفر.

سرّ التّعبير بالسّبيل دونَ الطّريق:

أعظِم بسبيلٍ منسوب إلى خالق النّاس، صالحٍ وجديرٍ بالاتّباع

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالسّبيل في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ للدّلالة على أنّه طريق واضح صالح للنّاس، فقد نهجَه الله تعالى لهم، وهو المَلك الأعظم[1]، ولأنّ الخير والرّشاد فيه، وهذا واضحٌ في سياقات القرآن الكريم، بأنّ تعبير ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يحمل معانيَ الهُدى والرّشاد والسّهولة.

دلالة إضافة السّبيل إلى لفظ الجلالة:

تعظيمُ السّبيلِ وتزكيتُه، والتّشنيعُ على مَن صَدّ عنه

دلّت إضافةُ السّبيل إلى لفظ الجلالة في قوله: ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ على تزكية هذا السّبيل وتعظيمه، فهو سبيلٌ وأيّ سبيل، فهو الذي ينبغي لكلّ ذي لُبّ سلوكُه؛ لأنّه السّبيلُ الذي يصلح أن يُتّبع؛ لما فيه من الخير واليسر. كما أنَّ في الإضافة زيادةً في التّشنيع على صدّهم النّاسَ عنه.

دلالة عطف المُشاقّة على الكفر والصّدّ:

حشدُ الصّفاتِ المذمومة دليلٌ على قُبحِ أفعالهم

عطف النّظمُ الجليل المشاقّةَ على الكفر والصّدّ في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ﴾؛ لبيان أنّهم "مع كفرهم وضلالهم في أنفسهم قد صَدّوا وصرفوا عَنْ سَبيلِ الله ضعفاءَ عبادِه، ومع ذلك شاقّوا وخاصموا الرَّسولَ المرسلَ من عنده سبحانه، المبعوثَ إليهم للإرشاد والتّكميل"[2]، فدلّ العطفُ على حشد صفات تمرُّدهم وقبيحِ أعمالهم؛ إيغالًا في التّشنيع عليهم.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 258.
(2) النّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 2/ 331.

دلالة التّعبير بالفعل (شاقّوا) مادّةً وصيغةً:

مخالفةُ المنافقين للنّبيّ ﷺ مناواتُهم له صفةٌ راسخةٌ فيهم

عبّر النّظمُ الجليل بالمشاقّة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِمَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ﴾؛ للدّلالة على مخالفتهم النّبيَّ ﷺ، وأنّهم كانوا في جانبٍ مناوئٍ للنّبيّ ﷺ، وجاء التّعبيرُ عن ذلك بصيغة المفاعلة؛ للدّلالة على أنّ كِلا الفريقين مخالفٌ للآخر، فالكفّارُ مستقرّون بشقٍّ، والنّبيُّ ﷺ مستقرٌّ بشقّ آخر[1]. وفيه إشارةٌ إلى مبالغتهم في المُشاقّة والمخالفة لرسول الله ﷺ، ممّا يدلّ على بُعدهم عن الهداية والإيمان، ويُؤكّد ذلك التّعبيرُ بصيغة الماضي (شاقوا)، الذي يدلُّ على رسوخ هذا الفعلِ في سلوكهم العدوانيّ مع الرّسول ﷺ.

سرّ إيثارِ ﴿ٱلرَّسُولَ﴾، ودلالةُ تعريفِه باللّام:

الكمالُ في الرّسالة يقتضي اتّباعَ الرّسولِ، لا الكفرَ به ومشاقّتَه

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالرّسول دونَ النّبيّ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِمَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ﴾؛ لأنّ الرّسول يدلّ على أنّه مُحمّلٌ برسالة، والتّعريف فيه دلّ على كمال الرّسالة، وأنّه في غاية المعرفة[2]، فهو تفخيمٌ لشأن النّبيّ ﷺ، ويَؤول ذلك إلى تشديد التّشنيع عليهم؛ لاجترائهم على هذه المشاقّةِ والمخالفةِ لرسول الله ﷺ.

سرّ اقتصار نسبةِ المشاقّةِ مع ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ دونَ لفظ الجلالة:

بيان عُلوّ قَدْرِه ﷺ، ورِفعةِ مكانته، وجَعْلُ مشاقّتِه كمشاقّة الله

النّاظِرُ في الآية يجد اقتصارَ نسبةِ المشاقّةِ مع ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ ﷺ في قوله: ﴿وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ﴾، دون نسبتها إلى الله تعالى كما ورد في آيات أخرى؛ مثل: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾ [الأنفال: 13]، وقوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأنفال: 13]؛ وذلك لبيان عُلوّ قَدْرِه ﷺ، ورِفعةِ مكانته؛ حيثُ جعل مشاقّةَ الرّسولِ كمَن يشاقّ الله تعالى.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 125.
(2) الخطيب، السّراج المنير: 4/ 34.

دلالة التّرتيب بين أفعال الكافرين في الآية:

أفعالُ المنافقين المذمومة مقصودةٌ

النّاظر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِمَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ﴾ يجد ترتيبَ أفعالِ الكافرين بدءًا بالكفر وانتهاء بالمشاقّة، وهذا يُدَلِّلُ على أنّ أفعالهم المذمومةَ مقصودةٌ؛ فهم كفروا باللّه أوّلًا، ثمّ تمادَوا في كفرهم، فصدّوا النّاسَ عن سبيل اللّه، ولمّا لم يجدوا لذلك سبيلًا يشفي غليلَهم، بالغوا وشاقّوا رسولَ اللّه، بإعلانِ العداوةِ الظّاهرةِ؛ فجعلوا أنفسَهم في شِقٍّ ورسولَ اللّه في شِقّ آخَر.

سرّ تقييد المشاقّةِ بشِبه الجملة:

الإعراض والمُشاقّةُ عن إصرارٍ وعِنادٍ لا عن شُبهة

قيّد النّظمُ الجليلُ مشاقّةَ الكفّارِ للنّبيّ ﷺ بأنّها حصلت بعد ظهور الهدى وتبيّنه في قوله جلّ شأنه: ﴿وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِمَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ﴾؛ وذلك للدّلالة على أنّهم صدّوا وأعرضوا وخاصموا النّبيَّ ﷺ، لا عن شُبهة صدرت عنه تدلّ على كَذِبه وافترائه، بل أعرضوا عنه وخاصموه بعد أن ظهر لهم الهدى، وثبتَ عندهم صِدقُه وهدايتُه[1]. فبيّن هذا القيدُ شِدّةَ كفرِهم وإصرارهم عليه.

دلالة التّعبير بـ ﴿مِنۢ﴾:

إعلانُهمُ الكفرَ والمُشاقّةَ بعد ظهور الحقّ ووضوحِه

عبّر النّظمُ الجليل بحرف الجَرّ ﴿مِنۢ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِمَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ﴾، وهي هنا لابتداء الغاية الزّمانيّة[2]، أي: ابتدأ خصامُهم وشقاقُهم بعد تبيّنِ الحقّ وظُهورِ الهُدى. وجَعلَها الإمامُ البِقاعيُّ دالّةً على التّبعيض، فقال: "ولمّا كان سبحانه قد عفا عن إهمال الدّليل العقليِّ على الوحدانيّة قَبْلَ الإرسال، قال مُثبتًا الجارَّ؛ إعلامًا بأنّه لا يغفر لمُضيّعه بعدَ الإرسال ولو في أدنى وقتٍ"[3].

(1) النّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 2/ 331.
(2) قباوة، المفصّل، ص: 1800.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 258.

دلالة التّعبير بالمصدر المؤوّل:

ظهور الهدى وحصولُه بزمان يتيح لهم إدراكَ الحقّ فيه

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالمصدر المُؤوّل دونَ المصدر الصّريح في قوله جلّ شأنه: ﴿مِنۢ بَعۡدِمَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى﴾، فلم يقل: (من بعدِ تبيُّنِ الهدى)؛ وذلك لدلالة الفعل ﴿تَبَيَّنَ﴾ على حدوث البيان ووقوعه، "بحيثُ صار ظاهرًا بنفسه غيرَ محتاجٍ ما أظهرَهُ الرّسولُ من الآيات الظّاهرة"[1]. فهو تأكيدٌ لظُهور الحُجّة عليهم ظهورًا متدرِّجًا، وقع شيئًا فشيئًا، بحيثُ يُتيح لهم زمانَ وقوعِه إدراكَه والتّحقّقَ منه، ولكنّهم أصَرّوا واستكبروا استكبارًا.

دلالة التّعبير بالفعل ﴿تَبَيَّنَ﴾ مادّةً وصيغةً:

إقامةُ الحُجّة عليهم في أنّ ما فعلوه من المشاقّةِ والكُفر والصّدّ لم يكن عن جهل

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالفعل ﴿تَبَيَّنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِمَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى﴾؛ لإقامة الحُجّة عليهم في أنّ ما فعلوه من المشاقّةِ والكُفر والصّدّ لم يكن عن جهل؛ بل عن إصرار وعِناد؛ لأنّ التّبيين يدلّ على الظّهور والوضوح؛ لذلك جاء على صيغة (تَفَعَّل) التي تُبرِز معنى الوضوحِ والظّهورِ في إقامة الحُجّة عليهم، من خلال الآيات والأدلّة.

الغرض من تقديم شِبه الجملة على الفاعل:

اختصاصُهم بظُهور الهدى لهم، لشُهودهمُ النّبيَّ ﷺ بينَهم

قدّمَ النّظمُ الجليل شِبهَ الجملة من الجارّ والمجرور على الفاعل في قوله جلّ شأنه: ﴿تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى﴾، فلم يقل: (تبيّن الهدى لهم)؛ وذلك لتخصيص ظهورِ الهُدى لهم، فكأنّ الهُدى ظهرَ لهم على وجه الخصوص، فلو كان أحدٌ تظهر له الهدايةُ لكان هم دونَ سواهم، لما أتاهُم به النّبيُّ ﷺ من الحُجَج والبراهين مع القرآن الكريم. كما أنّ تقديم شِبهِ الجملة المتضمِّنةِ الضّميرَ العائدَ لهم اهتمامٌ بهم؛ لأنّ السّياق جرى في الحديث عنهم وعن كُفرِهم وضلالِهم، فكان تقديمُ ذكرِهم أولى.

(1) الخطيب، السّراج المنير: 4/ 34.

سرّ التّعبير بالهدى، ودلالةُ اللّام فيه:

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالهدى دون غيره؛ لأنّه يحمل في طيّاته الكثيرَ من المعاني من الرّشاد والدّلالة، وذلك من خلال الآيات الحِسّيَّة والمعنويّة التي جاء بها الرّسولُ ﷺ. وفي التّعبير بالهدى إشارةٌ إلى أنّهم على الضّلال؛ حيثُ تركوا أسبابَ الهداية.

وعرّف النّظمُ الجليل ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾ بالألف واللّام في قوله جلّ شأنه: ﴿وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِمَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾؛ لدلالتها على الجنس، أي: وقع الهدى كلُّه لهم، وفيه تفخيمٌ لشأنه، فهو الهدى الوحيدُ الجديرُ بالاتّباع.

دلالة التّعبير بخبر ﴿إِنَّ﴾ جملةً فعليّة:

عَجزُ الكافرين عن الضّرر مستمرٌّ لا ينتقض يومًا

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ عن الضّرر المنفيِّ بالجملة الفعليّة في قوله جلّ شأنه: ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾؛ وذلك للدّلالة على تجدّد النّفي واستمراره، فإنّ الكافرين غيرُ مُسْتَطيعينَ تحقيقَ ضَررٍ بكفرهم لله تعالى.

دلالة النّفي بـ ﴿لَن﴾:

لا يبلغ ضَرُّ الكافرين إلى الله تعالى مهما طال الزّمان

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بنفي المضارع بحرف النّفي ﴿لَن﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾؛ لأنّها تنفي المستقبلَ، فدلّ على أنّهم ليسوا بقادرين على فعل ما يضرُّ الله تعالى في مطلق الزّمان حتّى منتهاه، وفي ذلك تيئيسٌ للكافرين، وبشرى للمؤمنين بأنّهم لن ينالَهم أذًى من الكفّار.

دلالة التّعبير عن نفي الضَّرّ بالمضارع:

كفرُ الكافر لا يضرّ الله شيئًا مهما تطاول الزّمان

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ عن نفي الضَّرّ بالفعل المضارع في قوله جلّ شأنُه: ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾؛ للدّلالة على تجدّد النّفي واستمراره، فانتفاءُ وقوعِ الضَّرّ الآنَ ومستقبلًا متجدّدٌ مستمرّ، وهذا تبكيتٌ وتأييس لهم.

الغرض من التّعبير بالاسم الجليل ﴿ٱللَّهَ﴾:

ذو الكمال والعزّة والجلال لن يلحقه ضرٌّ من الخَلْق

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالاسم الجليل في قوله جلّ شأنه: ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا﴾؛ تذكيرًا للسّامع بأنّه ملكُ الملوك، فأنّى يلحقُه ضرُّ الكافرين به[1]. وفيه تأكيدٌ لعدم استطاعتِهم إلحاقَ ضررٍ ما؛ فإنّ الله تعالى ذا العِزّة والجلال والكمال لا يَلحَقُه ضررٌ من خَلْقِه بكفرهم، ولا نفعٌ من إيمانهم.

الغرض من التّعبير بالشّيء وتنكيره:

لن يبلغوا أن يَضرّوا الله شيئًا مهما قلّ مقدارُه

عبّر النّظم الجليل بلفظ الشّيء في قوله جلّ شأنه: ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا﴾؛ وذلك للدّلالة على أنّهم لن يضرّوا الله تعالى شيئًا من الأشياءِ، أو شيئًا من الضّرر[2]، ولا بأيّ مقدار من الضّرر مهما قلّ.

سرّ التّعبيرِ بقوله: ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا﴾، دون أن يقول: (لن يضروكم):

نفي ضُرِّ الكافرين لله تعالى طمأنةٌ للرّسول وللمؤمنين

جاء التّعبيرُ القرآنيّ بنفي ضررِهم لله تعالى في قوله: ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا﴾، دون أن يقول: (لن يضروكم)، مع أنّ ذلك هو مقصودُهم؛ لطمأنة الرّسول والمؤمنين، وأنّ فعلهم مع الله في زعمهم بإيقاع الضّرر عليه سبحانه دليلٌ على قُبح فكرِ هؤلاء.

دلالة العطف بالواو في قوله: ﴿وَسَيُحۡبِطُ﴾:

ضياعُ الجهودِ في الدّنيا متبوعٌ بضياع الأُجور في الآخرة

عطف النّظمُ الجليل الإحباطَ على انتفاء الضّرِّ في قوله جلّ شأنه: ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾، فلمّا نفى عنهم قدرتَهم على إلحاق ضررٍ بالله المنزّهِ في ذاته عن ذلك، أتبعَه ببيان شِدّة خُسرانهم وكمالِه، وبُطلان سعيهم بما حاكوه من مكايد للإضرار بالنّبيّ ﷺ، فإنّهم لن يصلوا إلى مقاصدهم منها، بل إنّهم لن يروا إلّا القتلَ والجلاءَ عن أوطانهم[3].

(1) الخطيب، السّراج المنير: 4/ 34.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 101.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 124، والنّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 2/ 331.

دلالة التّعبير بحرف الاستقبال:

إبطال الأعمال واقـعٌ على وجه اليقين الأكيد

أدخل النّظمُ الجليل حرفَ التّنفيس الدّالَّ على الاستقبال في قوله جلّ شأنه: ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾، وهو هنا مستعمَلٌ للدّلالة على تأكيد تحقيق الفعل؛ وذلك لأنّ الله تعالى أبْطَلَ أعمالَهم من الآن، فالله تعالى لا يُعجزه ذلك حتّى يتوعَّدَهم به في المستقبل[1]. وفي التّعبير به طمأنةٌ لرسول الله وللمؤمنين بأنّهم في مأمن من عدوان هؤلاء؛ لأنّ الله يُبطِل أعمالَهم التي يعملونها ضِدّكم، وتوبيخٌ وتبكيت للكافرين؛ لأنّ ما قدّموه من أعمال يظنّون فيها الخيرَ، يحبط الله ثوابَها لهم في الآخرة.

دلالة التّعبير بالإحباط مادّةً وصيغةً:

إبطالُ الأعمال بسبب الكفر من صفات الحقّ الدّائمة

عبّر النّظمُ الجليل بالحُبوط في قوله جلّ شأنه: ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ دون غيره كالبُطلان؛ لأنّ الحُبوط أعمّ، فيشملُ حبوطَ كلِّ أعمالِ الكافرين، سواء كانت أعمالهم دنيويّةً أو أُخرويّةً في زعمهم؛ فإنّها لا تُغْني عنهم شيئًا، وتكون يومَ القيامة كالهباء المنثور؛ يُؤكّد هذا أنّ الحُبوط يدلّ على البُطلان والخُسران؛ فكما أنّ الدّابّة تكثر الأكل من الحَبَطِ حتّى ينتفخَ بطنُها بسبب الطّعام[2]، ويُسبّب لها الخُسران، فكما خسرت الدّابةُ الانتفاعَ من الطّعام فاستحال ضَررًا عليها، فكذلك الكافرُ يبطل عملُه فلا ينتفع منه.

أمّا البُطلان فلا يؤدّي هذا المعنى؛ لأنّه يكون لِمَن فقد شروط الصّحّة وهو في مقابلة الحقّ، وأعمالُ الكافرين لا تُبْنَى على الحقّ؛ لذلك ناسبَ التّعبيرُ بالحبوط دونَ البُطلان. وجاء التّعبير بالفعل المضارع للدّلالة على تجدّد ذلك واستمرارِه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 126، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 27/ 196.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حبط).

دلالة التّعبير بالأعمال جمعًا، وإضافتُها للضّمير:

شمول الإحباط لجميع أعمال الكافرين

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ عن الأعمال بصيغة الجمع في قوله جلّ شأنه: ﴿وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾؛ للدّلالة على شمول الإحباط لجميع الأعمال، كالمكايد والغوائل التي قصدوا بها النّبيَّ ﷺ، ويتناول ما قاموا به من أعمال الخير كإطعام الطّعام، وصلة الأرحام، وغيرها[1]. فكلّ أعمالِهم تلك تذهب أدراجَ الرّياحِ. وقد دلّت إضافتها إلى ضمير الغائبين أنّها الأعمال التي صدرت عنهم، وانتسبت لهم[2].

سرّ اختلاف التّعبير في إحباط الأعمال:

التّعبير بالماضي إشارةٌ إلى أنّ الإحباط في الدّنيا، والتّعبيرُ بالمضارع يكون للمستقبل

النّاظر في آيات سورة محمّد ﷺ يجد اختلافَ التّعبير عنها؛ حيثُ عبّر في أوّل السّورةِ بالفعل الماضي في قوله: ﴿فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٩﴾ [محمد ﷺ: 9]، وفي الآيات الأخيرة من السّورة عبّر بقوله: ﴿وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾؛ حيثُ اختار المضارع، وفيما مضى اختار الماضي، وسرُّ ذلك: أنّ التّعبير بالماضي إشارةٌ إلى أنّ الإحباط في الدّنيا، والتّعبيرُ بالمضارع يكون للمستقبل. ويجوز أن يكون المرادُ بالذين كفروا في أوّل السّورة (المشركون)، ومن أوّل الأمر كانوا مبطلين لأعمالهم؛ لأنّها كانت على غير شريعة، وفي الموضع الأخير يكون المُراد (الذين كفروا من أهل الكتاب)، وكانت لهم أعمالٌ قبلَ الرّسول ﷺ؛ فأحبطها الله تعالى بسبب تكذيبهم للرّسول ﷺ. ويجوز أن يكون المُراد بالأعمال في أوّل السّورة ما ظنّوه من الأعمال الحَسَنة، وفي الموضع الأخير مكايدُهم في القتال، والله سيبطلُها بنصر رسوله والمؤمنين. ويجوز أن يوَجَّه اختلافُ التّعبير على أنّ حصول الإحباط في المستقبل يدلّ على أنّ الله محبِطٌ أعمالَهم منَ الآن[3].

(1) القنوجيّ، فتح البيان: 13/ 76.
(2) النّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 2/ 331.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/ 325، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 43.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والخمسون،
سورة محمَّد من الآية 07 إلى سورة الحُجُرَات الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والخمسون، سورة محمَّد من الآية 07 إلى سورة الحُجُرَات الآية 14
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 56 ، 802 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-642-29-9
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 56 : المجلد السادس والخمسون، سورة محمَّد من الآية 07 إلى سورة الحُجُرَات الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-642-29-9
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9075646 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"